**الصدام الخطير بين فذلكات النُخَبْ وذكاء الجماهير**

أربعة أيام ويبدأ الناخبون بالإدلاء بأصواتهم في ختام جولة انتخابية رابعة، قد لا تكون الاخيرة، اكدت لمن في رأسه عينان أن ما اعتبرناه بالأمس على انه الأسوأ على الإطلاق انما هو "مجرد سيء" وان ثلاث معارك انتخابية خلال عام ونصف اعتبرناها "الطامة الكبرى" لم تكن سوى المقدمة لانتخابات رابعة قد لا تكون الأخيرة في نهج لا يشكل دليل صحة وديمقراطية بل يؤكد ان ما كان في الانتخابات الثلاث السابقة المتتالية خلال عام ونصف لم يكن الأسوأ مقارنة بالانتخابات الرابعة وكأن الثلاث التي سبقتها لم تكن كافية لتثبت العلة الخطيرة التي تعانيها الحلبة السياسية والحزبية في البلاد كجزء لا يتجزأ من علل تعانيها الدولة عامة والممارسة الديمقراطية فيها خاصة.

تشابهت الانتخابات الرابعة على الصعيد القطري، مع الثلاث التي سبقتها في انها ليست صراعاً ايديولوجياً بين يمين ويسار بل ان هذه التعريفات والتوصيفات لم تعد قائمة ولا فرق بينها خاصة بكل ما يتعلق بالمواطنين العرب في البلاد، فمنطلقات اليمين واليسار واحدة وهي صهيونية الدولة ويهوديتها وتفضيلها لليهود، وإن اختلفت الممارسة الشكلية واللفظية، وان الانتخابات الحالية لن تدور حول المواقف من القضية الفلسطينية رغم ان الإدارة الامريكية الجديدة برئاسة جو بايدن ربما كانت تتمنى ذلك، فكانت الرابعة كما سابقاتها بين معسكرين " فقط بيبي" او " فقط ليس بيبي" وكأنها انتخابات دولة في العالم الثالث او انتخابات قبلية وعشائرية وحمائلية في قرية عربية تذوب فيها الفروقات الأيديولوجية والجماعية المنطقية وتطغى الاعتبارات الشخصية ، لتدور رحى حرب الانتخابات بين معسكر مخلص وموالٍ لرئيس الوزراء بنيامين نتنياهو يعتبره القائد الأوحد مغفور الزلات والهفوات ، معسكر يتميز بالثبات والتراص، وبين معسكر يبقى شعاره" لا لنتنياهو" وتتغير مركباته وقياداته خاصة بعد ان أجهز نتنياهو بحنكة ودهاء فاقت حنكة ودهاء ومعرفة خبراء القانون والعقود والمعاهدات، على "خصم الامس وشريك اليوم" بيني غانتس وحزب " ازرق ابيض" وحولهم من حزب يطمح للقيادة والريادة الى حزب لم يبق منه اثر ، لكنها اختلفت عن سابقاتها بانها الانتخابات الرابعة هي انتخابات بين " شريك الأمس وخصم اليوم" انتخابياً على الأقل وليس أيديولوجيا وتحديداً بين جدعون ساعر "ليكودي امس وامل جديد اليوم" وبين نفتالي بينيت، حليف نتنياهو ووزير دفاعه أمس والمطالب بتغيير نتنياهو اليوم، لتتحول الحلبة السياسية اليهودية الى ثلاث جهات او ثلاثة تكتلات تشمل الاولى تلك الاحزاب التي تقبل حل الدولتين ومنها يش عتيد وازرق ابيض والعمل وميرتس والليكود وفق خطاب بار ايلان(67 عضو كنيست) وتلك الرافضة لحل الدولتين الداعية الى الضم ومنها " امل جديد" و"يمينا" ويسرائيل بيتينو وحزب بتسلئيل سموتريتش (36 عضو كنيست) علماً ان الليكود يدعو للضم ثم يتراجع ويتحدث عن حل الدولتين ثم يتراجع، اما الثالث فهو الأحزاب العربية .

هذا التشابه لا ينطبق على الأحزاب العربية التي لم تتعلم الدرس في أحسن الحالات فكررت السيناريو الذي جربته قبل معركتين انتخابيتين حين خاضت الانتخابات بقائمتين، الأولى الجبهة والعربية للتغيير والثانية تضم التجمع والقائمة العربية الموحدة (الإسلامية الجنوبية والديمقراطي العربي) فانخفض التمثيل العربي بأكثر من الثلث لتعود الاحزاب الى رشدها بقائمة عربية مشتركة أوصلت 15 ممثلاً الى البرلمان وقررت بشجاعة ان تلعب اللعبة البرلمانية فأوصت على بيني غانتس رئيساً للوزراء، والبقية معروفة حيث فضل غانتس شق ازرق ابيض والانضمام الى حكومة منحه فيها نتنياهو حلم رئاسة الحكومة" حلم ابليس بالجنة" ، لتكرر الأحزاب العربية صراعها وانشقاقها وسط محاولات بالية لإقناع الجمهور ان الانشقاق لن يمس بالتمثيل وهي بذلك تماماً كذاك صاحب الصفات الواضحة الذي يكرر العمل مرة تلو الأخرى ويتوقع نتيجة مختلفة ومغايرة ، وليس ذلك فقط بل ان الخلاف في الرأي وكما هي العادة في عرفنا العربي والشرقي أفسد للود كل قضية ليصبح شريك الأمس عدواً لدوداً او متهادناً ومتعاوناً وفي جيب نتنياهو او جيب لبيد، وليس ذلك فقط بل ان شريك الأمس أصبح اليوم ملحداً أوكافراً وتحولت شعارات الحفاظ على كرامة المواطن العربي وحقوقه وضمان حياته الى شعارات الحفاظ على الدين والمعتقدات والعادات كي لا يعبث بها أولئك الذين كانوا حتى امس شركاء في الطرح والمصير والتصويت.

لا ضير في التعددية ولا عيب في ان يخوض الانتخابات أكثر من حزب عربي او أكثر من تحالف لكن الخطير هو ان "كرامة" الاحزاب وكرامات قياداتها ورصيدها النضالي المتفاوت عمراً وقيمة وليس نقاءً أصبحت العامل الأهم والمسيطر لتتحول الطروح والنقاشات العقلانية والأيديولوجية الى عداوات شخصية خلفت مناكفات طائفية ودينية وفئوية اعادت المجتمع العربي الى ما كان من تشرذم قبل القائمة الموحدة التي كان تأثيرها يفوق ذلك السياسي والحزبي والبرلماني ليصل الى المستوى الوطني والجمعي والاجتماعي.. بدلاً من قائمة واحدة موحدة تحول المجتمع العربي الى مسلم ومسيحي ونقب ومثلث وجليل وكل على ليلاه ينادي، وما يرافق ذلك من تعديات ومحاولات اعتداء ليست حكراً على طرف دون غيره، اما الاخطر من ذلك فهو ان هذا الانقسام وما رافقه كشف حقائق غابت عنا او اعتقدنا بفعل الإنجاز المؤقت او التمني خيراً انها زالت الى غير رجعة، **أولها** ان احزابنا وقياداتها، ولا أقول قياداتنا، لم تتعلم اللعبة السياسية بعد وأنها لا تفهم او لا تريد،( انظر مثلاً الانتخابات لرئاسة حركة حماس في غزة والتي تكررت دون شفافية وبتفاوت الأنباء وتضاربها ، أربع مرات قبل اعتماد النتيجة النهائية) وان الاعتبارات الجماعية والمصلحة القومية هي الاولى مرتبة وشاناً واهمية اذا كانت شعارات وقيم حقيقية وليست مجرد زينة أو أكمة وراءها ما وراءها، وان الاعتبارات الشخصية والكرامة الشرقية تعني العكس اي سيطرة المصالح الخاصة على المصالح العامة، وهذه مشكلة الخطيرة تشكل اول الأسباب الرئيسة التي جعلت أكثر المجتمعات الشرقية والعربية في تخلف، وموضع ازدراء من المجتمعات المتحضرة ، **وثانيها** اتحادنا صحيح للحظته وان اتفاقنا ليس سوى مقدمة لخرقه والتحايل عليه وان انتماءاتنا كثيرة بعضها متجذر وراسخ وهو الفردي، كالدين والجغرافيا والانتماء والعائلة والقرية والمواقف الاجتماعية ، اما السياسي والايديولوجي والجمعي والجماعي والمجتمعي فإنه متغير يخضع للانتماء الأولي الضيق والمولود ، بكل ما يعنيه ذلك من صعوبة تغيير الحال وإصلاح الخلل العام والقضايا العامة لأن هذا كله يتراجع امام الخاص والضيق والفئوي ، **وثالثها** إعادة الانتخابات البرلمانية الى المربع الاول والى ما يشبه حالة الانتخابات المحلية، من تغليب للخاص وتغييب للعام ومن تبجيل وتقديس لمرشحي وتغييب وتخوين لمرشح الغير ما يعكس عودة حالة التشرذم الاجتماعي التي اعتدنا ان نتهم السلطة( وهذه المرة نتنياهو) بالمسؤولية عنها والعمل على تفتيتنا وتقسيمنا دون ان نمعن النظر الى ما في قلوبنا وعقولنا وتحليل لدورنا في هذا التفتت والتشرذم انطلاقاً من مبدا " اتفق العرب على ان لا يتفقوا"، **ورابعها** ان العودة الى قائمة مشتركة أصبح بعيد المنال في الانتخابات الخامسة وهي قريبة وواقعية، خاصة اذا ما بقيت القيادات هي نفسها وعلى ضوء الترسبات الشخصية والطائفية والاساءات الشخصية وغيرها، **وخامسها** ان العهد الذي اعتقدنا فيه نحن العرب في هذه البلاد اننا " بيضة القبان" في اللعبة السياسية ولو لفترة قصيرة قد انتهى الى غير رجعة وانه لم يعد سوى شعار تحاول أحزاب ووسائل اعلام ترديده لغاية في نفس يعقوب لا تمت الى الواقع بصلة، **وسادسها** ان الائتلاف القادم اذا ما كان نتنياهو رئيساً للحكومة سيكون" يمينياً خالصاً ימין מלא" لا يشمل الأحزاب العربية او أعضاء الكنيست الذين وصفهم الوزير ايلي كوهين وزير المخابرات قبل أيام وفي مؤتمر في القدس بأنهم" طابور خامس دون استثناء" وهذا هو موقف الليكود واليمين الحقيقي بينما يواصل رئيسه بنيامين نتنياهو خطب ودهم وصب القهوة لهم واحتساءها معهم وطلب أصواتهم عبر الحديث عن " قبول ومساواة المواطنين العرب وبالمقابل رفض وتخوين ممثليهم" ، **وسابعها** وهو ربما الأهم ان المواطنين العرب في البلاد وبعض قياداتهم ضاقت ذرعاً "بمعسكر الرفض" وانها تريد الانخراط في الحياة العامة والسياسية للدولة عبر تغليب الحقوق المدنية والتنازل عن الشطر الثاني من معادلة " حقوق مدنية وكرامة وطنية" والانخراط في حياة الدولة ، تماماً كما هو الحال عليه في العالم العربي الذي قررت بعض الدول والشعوب فيه انها ضاقت ذرعاً بالرفض والقطيعة مع إسرائيل وقررت التطبيع والمصالحة واعتبار إسرائيل جزءً من الشرق الأوسط والمنطقة ، باختلاف واحد ووحيد هو ان اندماج المواطنين العرب في حياة إسرائيل منوط بقبول الدولة لهم وبهم مواطنين كاملي الحقوق في دولتهم وليس في "دولة اليهود " ما يعني ان رفع شعارات الاندماج والسعي اليها والعمل من اجلها والتوصية على مرشح لتشكيل الحكومة حتى لو كان نتنياهو انما هو أقل من نصف الطريق بل مجرد خطوة أولى وإن كانت ضرورية الا انها غير كافية ونتائجها ليست بالضرورة مضمونة بل قد تكون سلبية اذا ما كان مردودها ونهايتها البقاء خارج الائتلاف مرة أخرى عملاً بالمثل القائل" رضينا بالبين وما رضي فينا" ما سيشكل ضربة قاصمة لكل النشاط والحراك الحزبي والبرلماني للمواطنين العرب وربما نهاية له عبر منح الداعين الى المقاطعة مبررات ودعم لموقفهم.

فوق كل هذا تبقى نسب التصويت العامل الاهم خاصة على ضوء مهزلة عدم توقيع فائض الاصوات بين المشتركة والموحدة في تأكيد لعمق العداء والنفور، وبالتالي فإن اصلاح أضرار المعركة الانتخابية الحالية ومحاولة تحسين الحال استعداداً لانتخابات قادمة قريبة او بعيدة يبدأ من رفع نسبة التصويت او عدم خفضها ورفض حالة القنوط التي لا تصب في مصلحة المجتمع العربي باي حال من الاحوال بل عكس ذلك أي بالخروج الى التصويت والتهافت على صناديق الاقتراع ولسان حالنا يقول ان التصويت ، اذا ما اردنا التصرف كمجتمع متحضر واعٍ ومسؤول ، هو واجب ديمقراطي وليس حقاً ديمقراطي فقط ، وانه الشرط الأساسي للمساءلة، وأقصد مساءلة السلطة الرابعة أي سلطة الراي العام للسلطات الثلاث الديمقراطية وخاصة السلطة التشريعية(البرلمان وأعضاء الكنيست) ، كما ان رفع نسبة التصويت هو التأكيد على ان الشعب أدرى بمصلحته وربما اكثر دراية وإدراكاً وبالتالي اكثر نُضجاً ومسؤولية وأنه أكثر مسؤولية من "مسؤوليه وقياداته" وأنه يغفر الى حين ويمهل لكنه لا بد سيحاسب، خاصة وان ما يحدث اليوم وخلال المعركة الانتخابية الحالية كان نبشاً للخلافات وتسليطاً للضوء على دواعي التصادم في تعبير عن عجز السياسيين العرب عن إقناع الجماهير بجدوى رؤيتهم وتحقيق القبول لمشاريعهم على اختلافها ما جعلهم يتجهون الى محاولة الهاء المواطنين بالتركيز على أسباب الخلاف لعلهم يظفرون بتأييد جزء منهم يوافق هواهم، وهي ممارسة تشتهر بها نخب التيارات المتنازعة التي تغذي الإستقطاب وتزرع ألغام الإقصاء، متناسية انه أحيانا يتجاوز الذكاء الجمعي للجماهير حذلقة النخب فلا يلقي لها بالا بل انه قد يصل في النهاية حد رفض كل أشكال التمثيل النخبوي ليفضل مواجهة سلطة الواقع بشكل مباشر بعد أن فقد الثقة في كافة قنوات التواصل معها ، وكأنه يقول للنخبة، أعضاء الكنيست العرب في هذه الحالة:" منحناكم الثقة مرة تلو الأخرى فأخفقتم فلا حاجة لنا بكم وسطاء وحلقة وصل. تنحوا جانباً انتم واحزابكم فأهل مكة ادرى بشعابها"...